

تلمسان في شعر ابن خميس

أ.شعبان صاري زليخة

جامعة تلمسان

يعدّ الأدب المغربي جزءا من الأدب العربي وهو في الوقت ذاته امتدادا للأدب المشرقى ولد وترعرع وشب في أحضانه حتى استقام عوده فانفصل بذاته نثرا وشعرا غزيرا في جميع الأغراض مثله شخصان مغربية شاركت بفعالية ديناميكية في إثراء هذا التراث الفكري والعلمي مخلفة آثارا بارزة تعبر بأصدق صورة عن المجتمع المغربي بفضائه وفكره، فضاء تميزه طبيعة الأرض المغربية وجغرافيتها . من مناظر جميلة وجبال شاهقة ووديان جارية ذات مياه عذبة جعلتها تختلف عن جغرافية المشرق العربي وطبيعته فكان لها جانب عظيم في صقل مواهب عديدة بقيت أبدا الدهر متعلقة به.

فالأديب المغربي متعلق ببيئته متشبع بثقافة مجتمعه مرتبط بطبيعة بلاده وجمالها، وهذا ما خلف في الأدب العربي تواجد كثيف لشعر الطبيعة ووصفها فيتغنّى بجمالها وهو في أحضانها وإذا ابتعد عنها صار نحن إليها شوقا وتلهفا معبرا عن ذلك من خلال نظمه لقصائد طول يروح بها عن نفسه المعذبة. فمن مثل هؤلاء نجد الشاعر المغربي ابن خميس التلمساني وهو أحد أعلام الجزائر البارزين في عصر متميز عرف بالصراع الفكري بين فقهاء المذهب المالكي والموحدين من جهة وبين الصوفية من جهة أخرى¹ وهو عصر يغمور فلقد تشبع الشاعر بالثقافة التي كانت سائدة في ذلك العصر كما نجد للحياة السياسية والاجتماعية أثرا عظيما في نفسية الشاعر.

تميزت الحياة السياسية بعدم الاستقرار إذ كثرت فيها الحروب بين المرينيين بالمغرب الأقصى ودولة بني عبد الواد بالمغرب الأوسط (الجزائر) ودولة الحفصيين (بتونس).

أما عن الحياة الاجتماعية فقد عرفت تطورا كبيرا إثر امتزاج البربر بالعرب فنزح البدو إلى المناطق الساحلية التالية الخصبة كمنطقة تلمسان بلد الشاعر التي شهدت في عصر الموحدين تطورا هائلا في العمران مما أدى إلى استيلاء الموحدين من قبائل الزناتية البربرية كقبيلة بني عبد الواد وبني توجين وبني راشد على ضواحي المدينة. وفي هذا يقول ابن خلدون: "احتازوا على الكثير من أرضها والطيب من بلادها، والوافر للجباية من قبائلها فإذا خرجوا إلى مشايخهم بالصحراء خلفوا أتباعهم بالتلول لاعتماد أرضهم ورداع قوتهم، وجباية الخراج من رعاياهم لكن ما يعرف عن مدينة تلمسان أنها قاومت الحفصيين والمرينيين بشجاعة وبسالة وبفضل رخاء اقتصادي ملموس وواسع لما تميزت به من كثرة المياه ووفرة البساتين المتنوعة

الثمار والكروم واختلاف الصناعات والحرف Eها ووجود أكبر جامع بأراضيها مما جعلها مقصد التجار ،
والرحالة فجمعت مدينة تلمسان بين الزراعة والتجارة والصناعة وبلغت بهذا اوج الحضارة والتمدن .
وبطبيعة الحال كل هذا له انعكاس واضح على الحياة الفكرية والثقافية السائدة في تلك الفترة.

هكذا نرى أن تلمسان كانت ذات عظمة وشأن في فكر وقلوب أبنائها وزوارها ومنهم ابن خميس التلمساني وهو عبد الله بن محمد بن عمر بن محمد بن محمد بن خميس الحميري الحجري الرعيني نسبه إلى حجر ذي رعين وهو أبو قبيلة يمنية أما كنيته فهي أبو عبد الله المعروف بابن خميس التلمساني نسبة إلى تلمسان مسقط رأسه ولد بها حوالي سنة 650 هـ من أسرة فقيرة ما جعله ينكسب بمدحه فيما بعد نشأ نشأة غامضة إذ لم تسجل كتب التاريخ عنها شيء ؟؟ بعض الإشارات القليلة عن حياته الاجتماعية منها ذكر عن رئاسته لديوان الإنشاء في أيام السلطان أبي سعيد بن يغمراسنⁱⁱ. كان صاحب أدب وثقافة كثير الرحلات يساير عصره محبا لذلك وهو القائل "أنا كالدّم بطبعي أتحرّك في كل ربيع"ⁱⁱⁱ اتهم بالزندقة مما دفعه للهروب من بلدة فاس التي كان قد قصدتها عائدا إلى موطنه الأصلي حيث لم يلق السلام فيه أيضا. ففر إلى سبتة وهو طامعا في وظيفة يحصل عليها هناك وهي خاصة بالتعليم. ومغادرته لبلده جعلته يشتاق إليها كثيرا إلى درجة أصبح يرثيها.

كل هذه الحوادث جعلت منه شاعرا عطوفا على بلده محبا له متعلقا به متشوقا إليه. فنمت فيه قريحة معذبة وألهمت فيه روحا متأرجحة عزاءه الوحيد للترويح عن مل هذه المشاعر وإخراجها من صدره هو نظمهم لقصائد يشيد فيها بتلمسان حتى أصبحت بلدا معشوقا خالدا بما وصفه ملفتا للأنظار فجعله وكأنه يتغنى بامرأة ملئت حياته عاش من أجلها وقف الدهر ضد اجتماعهما ففرق بينهما. وحافظ له على الذكريات فقط.

ولهذا خصص قصائدا طويلا يعبر عن شدة حنينه إلى بلده عشيقته كما ضم نفس الغرض قصائدا أخرى كانت موضوعة لأغراض مختلفة، وهذا لأن قلبه وفكره كان مع تلمسان دائما. فترى الشاعر قبل أن يمدح أمراء بني العرفي وهو في بلدتهم سبتة بقصيدته المشهورة الخائية رثى تلمسان وهجى ملوك بني عبد الواد سبب محنته وعزلته بعد ذلك انتقل إلى غرضه المنشود وهو المدح وشعره في الشوق والحنين يعبر عن صدق عاطفته وأحاسيسه عن حبه العميق لبلده، عاطفة إعجاب وانبهار بمدينة عريقة عاطفة اعتزاز بانتمائه لبلد عرف بالعلم والثقافة عاطفة شوق إليه عاطفة صارخة جراء آلام التفكير إذ لا يمكنه نسيانه، فهو نشيد بجمال تلمسان معالمها وعلمائها وأبنائها الذين شب معهم. فتلمسان في القلب النابض والدم السائر في جسم الشاعر فهي التي تولى لديه بتلك الصور الحقيقية التي يعبر عنها في قلب شعري رائع فكان بعده عنها هو انتحار له وموت واختفاء من على وجه الأرض وسبب هذا الموت هو راجع إلى مناكب الدهر إذ فرقه عن أحبته من رفاق وأمكنة وهو القائل:

ألح الزمان بأحداثه
وفرق بيني وبين الأهل
وطوح بي عن تلمسان ما
واعجل سيرى عنها فلم
فالزمان بكل أحداثه ومصائبه جعله يخضع لأحكامه فيتمثل لها دون دفاع وبلا سلاح ففرق بينه وبين
أهله دون أن يلومه لائم فخرج وغادر تلمسان وما كان يظن ذلك واقعا أبدا طرد منها بعجلة فلم تتح له
فرصة توديع تربتها وأمكنتها.
بلغ به شوق تلمسان إلى حد بعيد جعله يذكرها في معظم قصائده ذكرا دقيقا بشخصها وهو يصف
حالتها ويشبهها بحال المريض المقبل على الموت وما كانت هذه الحالة في حقيقة المر إلا حالة وهو بعيدا عن
أهله وأوطانه.
فكان يستشف أخبارها من كل قادم منها حتى طمع في نسيم الرياح وما قد تحمله من ذرات أصلية
من تلمسان فهو القائل:

تسل الريح إن لم تسعد السفن أنواء
فقد نأخذ من غبار الرياح القادمة من تلمسان ما يطفئ بعضا من لدعه وشوقه فقد يحمل له ما يخبره
عن أهله وبلده. البلد الذي لم ينسه أبدا بات يكيه متشوقا لنسيمه مستحضر في خياله لفضائه الجميل
ذاكر معاملته ممجدا أعلامه. بصفة بلا بداع وروعة فحينه لتلمسان جعله يصف هذا البلد وصفا دقيقا
يكشف عن حاله ويظهره بالواقع الذي هو عليه وعلى الصورة التي يتخيلها وكأنه حاضر فيه. يراه ويشعر به
فيصف في معظم قصائده جانبين هامين أحدهما داخلي والثاني خارجي ، فالداخلي ما يمس نفسيته كحبه
لبلده وكرهيته لملوك بني عبد الواد وحزنه على فراقها وأما الخارجية فهي ما تستعد عن نطاق النفس
والشعور وهي وصف مدينة تلمسان بكل ما يمثلها من جامد ومتحرك بإبداع وروعة يعلل سبب جمال
طبيعتها بوفرة مياهها وعدوبتها ومزية الرياح عليها التي تحمل على تلقيح بساكنيها إذ يقول :

تلمسان جادتك السحاب الروائح
فبذكر الشاعر P مناجاتها وأحيائها
وسخ على ساحات باب جيادها
لساقيه الروحي عندي مزية
لم يسطع الشاعر أن ينسى
وشعوره بما متعلق به دوما
وهو القائل :

يطير فؤادي كل ما لاح لاعم
وينهل دمعي كلما ناح صائح^{vi}

وأرست بواديك الرياح اللوائح^{iv}
فما كان يجري فيها قائلا
ملث يصافي تربها ويصافح^v
وإن زعمت تلك الرواسي الرواشح
هذا البلد الرائع وبقيت عاصفه
يتفقد أخبارها ودمعه سائلا

ففي كل شفر من جفوني مائح
وما الماء إلا ما تسح مدامعي
نظرت فلا ضوء من الصبح ظاهر
لعيني ولا نجم إلى الغرب جانح
لطالما حاول الشاعر كتمان حزنه ولوعته على بلده لكن صدا الكتمان لم يدم طويلا إذ لم تستجب له
والدموع وانملت من عينه فاضحة له.
كتمت هواها ثم برح بي الأسي
وكيف أطيق الكتم والدمع فاضح
يشيد بالأماكن المجيدة العريقة الموجودة بتلمسان عن العباد والوريط وجمال طبيعتهم وما يحيط بها من
بساتين والسواقي.

بمثل حلاه تستحث القرائح

قراح غدا ينصب من فوق شاهق

وأصفى من الدمع الذي أنا سافح

أرق من الشوق الذي أنا كاتم

فالشاعر في هذه القصيدة يظهر لوعه وتشوقه إلى بلده فيصف كل ركن منها وصفا دقيقا بمعلمه
وآثاره فيصور طبيعتها الجميلة ويشيد بمائها الصافي العذب وسهولها الخصبة ومراسمها العريقة فيجرح بخياله
الواسع بعيد حتى يصبح يشبه الطائر الذي يعلو فوق الأغصان يترقب أخبار بلديته فيصف حاله الحزين
الباكي على مسقط رأسه إذ لم يعد باستطاعته كتمان هذا الحب العميق لها لأن شدة حزنه وبكائه وإرساله
لهذه الدموع أصبحت تفضحه، فيذكر معالم بلده وشيوخه والشخصيات المؤثرة فيه الباعثة فيه روح
التصوف وهو دفين بلده أبو مدين شعيب بن الحسين كما يذكر السواقي التي كان يتردد عليها وهي ساقية
الرومي أو المعروفة بالساقية النصراني وأحياء موطنه كحي العباد وشلال الوريط وما يحيطه من بساتين التي
يبحث فيها الحياة والحيوية ذلك الماء المتدفق من الأعلى العذب فتلمسان في قلبه وروحه وجسمه لا تفارقه
لحظة حتى وإن غادرها مكرها مضطرا فهي مكانه الأول والأخير وتبقى أجمل الأراضي على سطح
الأرض.... أحبها حبا لا مثيل له فهام بها وتعلق بأهلها الكرام فجاءت عاطفته صادقة نابعة من الأعماق
المحروقة على حبيبته النفيسة جعلته يبدع في تصويرها وتشخيصها وبهذا جعلها فائدة في التاريخ.

هوامش وإحالات

- 1 - ابن خلدون كتاب العبر، ج7، ص 159-160، ط دار الكتاب بيروت، 1959.
- 2 - أنظر كتاب تاريخ الجزائر العام، للدكتور عبد الرحمن الجيلالي.
- 3 - ابن خميس شعره ونثره ص 52.
- 4 - دار، 7، المجلد، 131 ص عباس إحسان تحقيق، للمقري، الرطيب الأندلس غصن من الطيب نفح 4
بيروت صادر
- 5 - نفح الطيب للمقري.
- 6 - المرجع نفسه.
